مجلة مدارات سياسية
EISSN: 2710 - 8341 ISSN: 2588 - 1825
المجلد (05) / العـدد: (01)، (2021)، ص 250 - 267

وضعية التربية والتعليم في المؤسسات الدينية الجزائرية
The Education Situation in Algerian Religious Institutions

سيف الدين هيبة[1]، شوقي نذير[2]*
[1]جامعة غرداية، (الجزائر)، seife507@gmail.com
[2]جامعة غرداية، (الجزائر)، chaouki.nadir@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/04/28 تاريخ قبول النشر: 2021/05/22 تاريخ النشر: 2021/06/07

ملخص:

تعدّ المؤسسات الدينية بمختلف أنواعها؛ مسجدا كانت أو زاوية أو كتابا أو مدرسة قرآنية أو محضرة من بين أهم المؤسسات التي كانت وما تزال تؤدي دورا هاما في التنشئة الاجتماعية المهمة في المجتمع سواء قبل الاستعمار وإبان الفترة الاحتلالية وما بعد الاستقلال.

ومن خلال هذا البحث سنسلط الضوء على الأدوار الحالية لهذه المؤسسات، موضحين طرق ومناهج التعامل مع هذه التحولات وفي ظل هذه المستجدات، من أجل تحقيق أهدافها والحفاظ على مقومات الأمة وهويتها وشخصيتها الوطنية.

كلمات مفتاحية: المؤسسة الدينية؛ المؤسسة التربوية؛ المدرسة القرآنية؛ الزاوية؛ المسجد.

Abstract:

Religious institutions of all kinds, mosque or zawiya of quran, kuttāb or quranic school, or even a Mahdarah are considered one of the most important institutions which have been played a pivotal role in socialization of people in community, both in precolonial and during and beyond independence.

In this research, we highlight the existing roles of that institutions, we also try to clarify its ways and approaches of dealing with changes under the existing novelties for achieving its goals and maintain components of nation and its identity, national personality as well.

Keywords: religious institution; educational institution; quranic school; zawiya; religious education, mosque.

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

المؤسسات الاجتماعية كثيرة ومتعددة، وهي خاصية من خصائص الانسان، وبالنظر إلى أنّ متطلبات الإنسان وقضاياه دائمة التجدد والتنامي، فإنّ وسائل ذلك ومؤسسات ذلك أيضا متنامية ومتزايدة، وإنّ المؤسسات الدينية باعتبارها واحدة من مؤسسات التنشئة الاجتماعية المهمة في المجتمع، ومن أهمها المساجد والكتاتيب أو ما يسمى أيضا بالمدارس القرآنية أو المحاضر والزوايا، التي كانت وما تزال تؤدي أدوارا مهمة في المجتمع، سيما في مجال التربية والتعليم.

ومن نطرح الإشكالية الآتية: كيف كانت أدوار المؤسسة الدينية قبل الاستعمار وإبان الفترة الاحتلالية وما بعد الاستقلال وما هي أدوارها الحالية أي خلال الفترة المعاصرة (ما بعد الحداثة)؟ وكيف تعاملت هذه المؤسسات الدينية مع هذه التحولات؟ وماهي التحديات والمعوقات التي تقف حاجزا أمام دورها الأساس اليوم ألا وهو الحفاظ على مقومات الأمة وهويتها وشخصيتها الوطنية؟

2. التعريف بالمؤسسات الدينية الثلاث (المساجد، الزوايا والكتاتيب):

1.2 مفهوم المسجد:

"لقد علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم أنّ المسجد – إلى جانب أنّه بيت الله تعالى المخصص للعبادة – فهو مؤسسة اجتماعية بالغة الأهمية، بل هو مؤسسة تعليمية تربوية يتعلم المسلمون فيها كثيرا مما يتصل بأمور الدين وأمور الدنيا من خلال الخطب والدروس والمحاضرات التي تلقى في المسجد، فهو مدرسة عالية للراغبين في العلم"[1]، حيث أن "المسجد مؤسسة اجتماعية ينشئها المجتمع المسلم بهدف تأهيل النشء للحياة الاجتماعية من خلال التنشئة المنضبطة بقيم الاسلام ومبادئه"[2].

2.2 مفهوم الزاوية:

"هي في اصطلاح المسلمين محلّ تثقيف العقول دينيا وأدبيا وتكون مسماة باسم أحد المرابطين على اصطلاح المغاربة، ولاسيما قبائل الجزائر، وهي عبارة عن مسجد وقبة على ضريح المرابط المنسوبة إليه، ومحلّ يقرأ فيه القرآن وآخر تدرس فيه العلوم وثالث لتعليم الصغار ومنزل للطلبة الذين يريدون تتميم دروسهم حتى يصيروا أهلا للتدريس أو نيابة القضاء ومنزل آخر للفقراء والمسافرين وقد يكون فيها مقبرة لأهل الصلاح القاصدين مجاورة قبورهم لقبور المرابطين"[3].

"وإنّ الزاوية هي مجموعة من التلاميذ (الطالب، المريد) يلتفّون حول معلم (شيخ) ويبدؤون مسار الدخول في جمعية دينية التي تمتد إلى سنوات حتى يصلون إلى عدد كبير يصبحون به قادرين على تقديم الدروس الملقّنة، تتحول إلى مركز للزاوية...هذا النوع من التنظيم لعب دورا عظيما في المغرب حتى بداية القرن العشرين، ولها عدة مهام (دينية، اجتماعية، سياسية وحتى الحربية)"[4].

كما "أنها مراكز مشايخ الطرق الصوفية في الجزائر والمغرب الإسلامي بصفة عامة، ويعدّ التعليم العربي الديني إحدى وظائفها الأساسية إلى جانب العبادات والأذكار الصوفية"[5].

والزاوية هي ملجأ للفقراء والمساكين وأبناء السبيل، كما أنّها مدرسة تربوية تعتمد على مبادئ دينية (تعليم القرآن تفسيره، تدريس الفقه والسنة النبوية الشريفة، المتون بمختلف أنواعها)، إضافة إلى اعتمادها على طريقة صوفية تتبعها لما لها من عقود وعهود دينية وأوراد متداولة بين مريديها.

3.2 مفهوم المدرسة القرآنية: هي: "مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم وترتيله، بها وسائل قديمة من اللوح والمداد، السبورة، والمدرسة القرآنية عبارة عن حجرة أو حجرتين قد تكون مجاورة للمسجد أو بعيدة عنه، أو غرفة في منزل وتبنى خصيصا لتعليم القرآن "[6].

وتسمى المدارس القرآنية أيضا بالكتاتيب وهي جمع كتاب، وربما جاءت الكلمة من تعلم الكتابة والقراءة وغيرها من الأساسيات لتعليم القرآن وعلومه.

3. أهمية المؤسسات الدينية وأهم وظائفها وأدوارها:

1.3 الأهمية:

في حديثنا عن أهمية المؤسسات الدينية يمكننا إجمالها في أهمية المسجد ووظائفه، حيث إنّ الزوايا والمدارس القرآنية في كثير من الأحيان تكون هي إحدى مكونات ومرافق المسجد وتؤدي أدوارا فرعية ومكملة لدور المسجد سيما فيما يتعلق بالتعليم القرآني والعلوم الأخرى المكملة له، وتعليم الآداب والأخلاق والأذكار...والمنظومات والقصائد والأناشيد الدينية، إلا أنّ الزاوية تزيد على هذا في بعض الأحيان أو في أغلبها من حيث إنّها تكون مأوى لطلبة العلم وعابري السبيل والفقراء والمساكين، كما أنّها تقوم بوظيفة أخرى وهي إطعام الطعام والقيام بالصدقات والولائم والوعدات وغيرها...

إذن فللمسجد أهمية كبيرة – قد لا تضاهيها أهمية في مؤسسة أخرى – حيث يلاحظ على الأطفال الصغار رغبتهم الملحة في أن يعاملوا مثل الكبار، فابن الرابعة يلحّ على أهله كي يذهبوا به إلى المدرسة إذا كان له إخوة تلاميذ في المدرسة، وتحسن الاستفادة من هذه الرغبة في التنشئة الاجتماعية فيصطحب الآباء أولادهم في الرابعة إلى المسجد فيتعلموا عدة أمور اجتماعية منها: آداب دخول المسجد وآداب المجلس فيه والمحافظة على نظافته والهدوء فيه والإصغاء إلى الخطيب، كل هذه الأمور يتعلمها بتقليد الآخرين.

وفي الخامسة من عمره يمكن إلحاقه بجماعة تحفيظ القرآن في المسجد ليتعلم السور القصيرة والحروف الهجائية، ويحفظ الأناشيد الإسلامية، ودخول الأطفال الصغار إلى المسجد جائز، إذ إنّ دخولهم إلى المسجد من سمات المجتمع المسلم كما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد حمل رسول الله صلى الله عليه وسلم أمامه بنت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يؤم الناس فإذا قام حملها وإذا سجد وضعها[7].

وأخرج البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه – أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنِّي لَأَقُومُ فِي الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ»[8].

وأخرج النسائي بإسناد صحيح عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَّادٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي إِحْدَى صَلَاتَيِ الْعِشَاءِ وَهُوَ حَامِلٌ حَسَنًا أَوْ حُسَيْنًا، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَضَعَهُ، ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلَاةِ فَصَلَّى فَسَجَدَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ صَلَاتِهِ سَجْدَةً أَطَالَهَا، قَالَ أَبِي: فَرَفَعْتُ رَأْسِي وَإِذَا الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ سَاجِدٌ فَرَجَعْتُ إِلَى سُجُودِي، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلَاةَ قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ صَلَاتِكَ سَجْدَةً أَطَلْتَهَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ، قَالَ: «كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ»[9].

"والظاهر أنّ الأطفال كانوا يلعبون بأفنية المساجد – في زمن الصحابة والتابعين وتابع التابعين، كما روى القاسم بن محمد– رحمه الله– قال: "كانت عند عمر بن الخطاب امرأة من الأنصار، فولدت له عاصم بن عمر، ثمّ إنّه فارقها، فجاء عمر قباء فوجد ابنه عاصما يلعب بفناء المسجد، فأخذه بعضده فوضعه بين يديه على الدابة، فأمسكته جدة الغلام فنازعته إياه، حتى أتيا أبا بكر الصديق وهو خليفة يومئذ فقال له: خل بينها وبينه، فما راجعه عمر الكلام.

"وإنّ تردد الصغير إلى المسجد وتنشئه على ذلك تجعله يألفه ويرتبط به، وارتباطه بالمسجد ليكون من رواده مصلحة عظمى لا يجوز التفريط فيها بحجة تلويث المسجد أو التشويش على المصلين، والمصلحة العظمى تقدم، وقد قدمت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم"[10].

"وارتياد المساجد وأداء الصلاة فيه يعلم الطاعة وسرعة الاستجابة والنظام والدقة والخشوع والإقبال على الله، ويعلم آداب دخول المسجد وآداب الخروج منه، والصمت وحسن الاستماع".

2.3 الأدوار والوظائف:

1.2.3 أهم وظائف وأدوار المسجد:

كان أول عمل قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما وصل المدينة بناء المسجد، لأنّ المسجد هو الذي يضم شتات المسلمين، يجمعون فيه أمرهم ويتشاورون لتحقيق أهدافهم ودرء المفاسد عنهم، والتعاون لمجابهة المشكلات، وصد العدوان عن عقيدتهم وعن أنفسهم وأموالهم، بل هو المعقل الذي يلجؤون فيه إلى بارئهم، يستمدون منه السكينة والقوة والعون، ويعمرون قلوبهم بشحنة جديدة من الطاقات الروحية، بها يمنحهم الله صبرا وبأسا وإقداما ووعيا وتبصرا ورباطة جأش، وبعد نظر وتفاؤلا ونشاطا، إذن فمن أهم وظائفه ما يلي[11]:

***الوظيفة التربوية والخلقية والتعليمية والروحية:** كانت للمسجد في صدر الإسلام وظائف جليلة أهمل المسلمون اليوم عددا منها، فقد كان منطلقا للجيوش وحركات التحرير، تحرير الأمم والشعوب من العبودية للبشر

والأوثان والطواغيت، ليتشرفوا بعبوديتهم لله وحده، وكان المسجد مركزا تربويا، يربى فيه الناس على الفضيلة وحبّ العلم وعلى الوعي الاجتماعي ومعرفة حقوقهم وواجباتهم في الدولة الإسلامية التي أقيمت لتحقيق طاعة الله وشريعته و عدالته ورحمته بين البشر، فكان أن انطلق تعليم القراءة والكتابة، أي البدء بمحو الأمية من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان المسجد مصدر إشعاع خلقي، يتشبع فيه المسلمون بفضائل الأخلاق وكريم الشمائل.

***الوظيفة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمسجد:** حين تعصف بالمسلمين نكبة أو نازلة يعتصمون ببيوت الله ليرفعوا راية الإسلام، وليجتمعوا على إعلاء كلمة الله كما حدث عند الغزو الصليبي الأول، وكما حدث في معظم الحركات التحررية ضد الغزو الصليبي اليهودي الثاني. أي ضد المستعمرين الذين وطئت جيوشهم منذ أكثر من قرن معظم البلاد الإسلامية فقد انطلقت الثورة السورية من عدد من أكبر مساجد المدن السورية، وانطلقت ثورة الجزائر ومن الكتاتيب والمدارس الإسلامية في المساجد، وكذلك حركات التحرر الإسلامي في الباكستان وأفغانستان وغيرهما.

فمن خلال المسجد يتربى الناشئ في ظلّ مجتمع إسلامي ناهض راق، ينظم شؤونه على أساس الشورى، ويتفقد مرضاه فيعودوهم، وفقراءه المعوزين فيعطيهم مما أعطاه الله، وتنعقد أواصر المحبة بين جمع القلوب، فيغدو مجتمعا قويا متماسكا يساهم في تربية الجيل ونهضته وإنعاشه.

وفيما يتعلق بالوظيفة الاقتصادية فهي من خلال دوره في تنظيم وجمع وتوزيع الزكوات سواء الزكاة العامة أو زكاة الفطر أو القيام ببعض النشاطات والتظاهرات والمواسم التي يتحقق فيها التكافل الاجتماعي بكلّ صوره وأشكاله.

وعندما يأخذ المسجد مكانه الطبيعي الذي بنى من أجله وأراده الله له، يصبح من أعظم المؤثرات التربوية في نفوس الناشئين، فيه يرون الراشدين مجتمعين على أمر الله فينمو في نفوسهم الشعور بالمجتمع المسلم، والاعتزاز بهم، وفيه يسمعون الخطب والدروس العلمية، فيبدؤون بوعي العقيدة الإسلامية وفهم هدفهم من الحياة، وما أعده الله لهم في الدنيا والآخرة. وفيه يتعلمون القرآن ويرتلونه، فيجمعون بين النمو الفكري والحضاري بتعلم القراءة ودستور المجتمع الإسلامي، والنمو الروحي وهو الارتباط بخالقهم.

وفيه يتعلمون الحديث والفقه، وكلّ ما يحتاجون من نظم الحياة الاجتماعية كما أراد الله أن ينظمها للإنسان، ومن هداية الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن العلوم المتممة لذلك كاللغة والتاريخ الإسلامي وغيرها، ولكن ما يدعو المسلمين الى المسجد هو الالتقاء على طاعة الله، فشعار الاجتماع في المسجد لأمر طارئ أن ينادي منادي في أسواق المسلمين ومآذن مساجدهم (الصلاة جامعة) فإذا اجتمعوا كان أول عملهم أن ينتظموا صفوفا ويصلوا ركعتين، ثم يتداولون أمرهم هذا إذا اضطروا للاجتماع في وقت لا تحين فيه صلاة

مفروضة، وفي الحالات غير الاضطرارية ينتظرون وقت الصلاة المفروضة، فلا يبرمون أمرا إلا بعد اجتماعهم على صلاة .

فالمسجد على هذا يعلم الناشئين أنّ كل أمور الحياة تابعة للارتباط بالله، وصادرة عن هدف التربية الإسلامية الشامل الذي هو إخلاص العبودية لله، وينغرس هذا المعنى في نفس الناشئ عفوا من غير قصد ولا تكلف.

2.2.3 أهم وظائف وأدوار الزاوية: الزاوية شأنها شأن المسجد، وظائفها كثيرة ومتعددة يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

***الوظيفة الدينية والروحية:** وتتمثل في نشر التعاليم الدينية الإسلامية السمحة والحفاظ على الشعائر ومختلف العبادات، بالإضافة الى غرس القيم الاسلامية الفاضلة والأخلاق الحسنة والسلوك القويم في نفوس المسلمين.

***الوظيفة الوطنية والسياسية:** حيث كانت الزاوية دائما تذود عن الأوطان، لأنّها تعرف أنّ حبّ الوطن من الإيمان، وأنّ جلّ الثورات التي قامت في الجزائر ضدّ الاستعمار الفرنسي كانت تسيرها الطرق الصوفية بقيادة وزعامة شيوخها، وفي كلّ أنحاء العالم الإسلامي ، حيث كان المتصوفة المشهورون يحرضون على الجهاد لتحرير الأوطان من براثن الاستعمار، فكانت رباطات ونقاط أساسية ضد الاعداء، وأصبح المرابطون يقودون أتباعهم في الحروب الجهادية وينصرون المجاهدين ويطعمونهم في زواياهم ويتحالفون مع المكافحين من أجل الدين وحماية البلاد ، وقد ظلت هذه المؤسسة – الزاوية في الجزائر– عقودا من الزمن صامدة صمودا الجبال الرواسي في وجه الحملات التبشيرية والمحاولات التنصيرية لتحافظ على الشخصية الإسلامية العربية لهذا الشعب، وتحفظ له أصالته من عوامل المسخ والذوبان والتشويه، وحافظت على كتاب الله العزيز واللغة العربية وبذلك صانت الشريعة الاسلامية والوطن.

***الدور القضائي:** تقوم الزاوية بدور الهيئة القضائية بحيث تفصل فيها الخلافات والنزاعات بين المتخاصمين ويعدّ شيوخها قضاة عادلين، فكان لها الفضل أن منعت أبناء المسلمين من اللجوء للمحاكم الفرنسية، فكانت هي محاكم المسلمين، وملجأ للمتخاصمين منهم بحلّ المنازعات وتسوية الخلافات بينهم، وذلك بالمصالحة والتسامح.

فكان الصلح على التسامح وتراضي الخصمين فلا غبن ولا إجحاف، ولا ميل ولا إرغام، بل ينبع من طيبة النفس وصفاء القلب وحب الخير والطمع في الأجر، لقوله تعالى: «فمن عفى وأصلح فأجره على الله»[13]، وبذلك يقطعون رأس الفتنة، ويخمدون نار الحقد المؤججة في الصدور ويقضون على الفتنة في مهدها.

***الدور التربوي والتعليمي والتثقيفي:** إنّ الزوايا كما أشرنا هي مؤسسات تعليمية، تربوية، تثقيفية، لها طابعها الثقافي، فقد علمت الجاهل، ومناهجها تختلف اختلافا بسيطا من حيث الطريقة التربوية لكل شيخ، وكلّها تصب في الحفاظ على التعاليم الدينية الإسلامية عن طريق الوعظ والإرشاد والإصلاح.

أمّا دورها الثقافي فيتمثل في إحياء المناسبات الدينية وإقامة الصدقات السنوية (الوعدات) والقيام ببعض العادات والتقاليد والشعائر.

***الدور الاجتماعي والاقتصادي**: ويكمن هذا الدور في إطعام الطعام، ومساعدة الفقراء، وإيواء العجزة، واستقبال الضيوف الوافدين إليها، وأبناء السبيل، أما من الناحية الاقتصادية فقد كان لها دور التحكم في تسيير الموارد الاقتصادية، وذلك من خلال بعض المصادر المالية لتغطية حاجياتها وحاجيات الوافدين إليها، وكذا بعض النفقات الأخرى على الطلاب (الطلبة)، حيث تتمثل هذه المصادر في مساهمة شيوخ القبائل والأعراش المجاورة للزاوية، أو حتى أتباعها في مناطق أخرى بتخصيص جزء من أموالهم وثرواتهم للزاوية حسب ثرائهم (من النقود والأنعام والزروع) بالإضافة إلى تبرعات المحسنين والمريدين والتبرعات التي تقدمها مختلف شرائح المجتمع المحلي (المقاديم، الأتباع، المريدين، والمحبين)، وكذا المبالغ المالية التي يتبرع بها الزوار ، كذلك ما يجنيه أهل الزاوية من الحقول والمزارع والغابات وكذا ما ينتج من الأنعام (صوف، وبر، شعر)، وغيرها من ممتلكات المؤسسات الوقفية وبعض العقارات، هذا بالإضافة إلى أموال الصدقات (الوعدات والمعاريف) التي يقدمها الزوار – كما أسلفنا – على شكل نقود وبضائع ومواد غذائية متنوعة وألبسة تختلف كمياتها ومقاديرها وأنواعها حسب اختلاف مصادر أموال وثروات هؤلاء الزوار وحسب حبهم ومولاتهم للزاوية، وفي هذا الصدد يقول أبو القاسم سعد الله: "للطرق الصوفية مصادر للعيش والتوسع، فإذا انقطعت أو نضبت تقلص نفوذ الطريقة واعتراها الانكماش والفناء، ولذلك كانت كلّ طريقة حريصة على تحصيل المال بوسائل معلنة وغير معلنة، تقليدية ومتجددة"[14].

كلّ هذه الأدوار تقوم بها الزاوية بالإضافة إلى الدور الحضري الذي يكمن في تكوين قرى ومدن تجتمع حول مؤسسة الزاوية مما يساهم في التطور العمراني والتحكم في تسيير شؤون القرية والمدينة، وهو ما يسهل عليها عملية تحولها إلى ممالك، وهذا ما حدث فعلا في أغلب الزوايا في غرب إفريقيا وشمالها وحتى في مناطق أخرى من العالم.

3.2.3 أدوار المدارس القرآنية (الكتاتيب): يمكننا القول إنّ الدور الرئيس الذي تقوم به المدارس القرآنية (الكتاتيب) هو تحفيظ كتاب الله على ظهر قلب وذلك بالتلقين، بالإضافة إلى بعض علوم القرآن الأخرى المتصلة به كعلم التجويد والتلاوة (الأحكام) في بعض الأحيان، "وقد بقي تعلم القرآن في الكتاتيب والمساجد إلى عهد قريب وسيلة لتعلم القراءة والكتابة، فكان الأطفال قبل انتشار المدارس الحديثة يتقنون قراءة القرآن، فيتعلمون القراءة على أسلوب الطريقة الجملية، أي أنّهم يتقنون التعرف إلى صور الكلمات المكتوبة مقترنة بألفاظها المنطوقة. وكان الأطفال بعد هذه القراءة الأولى، يكتبون القسم الذي قرأوه على ألواح خشبية يحاكون رسمه في المصحف، وكلما كتبوا جزءا يناسب مقدرتهم، عادوا فأتقنوا تلاوته ثم ينتقلون إلى غيره، وهكذا حتى يتموا جميع القرآن، ثم ينتقى منهم المتفوقون ليحفظوا القرآن عن ظهر قلب"[15].

وإنّ المتتبع لأحوالهم وفي مساراتهم الدراسية عادة ما يجدهم متفوقين في شتى العلوم، وحائزون على الرتب الأولى في الامتحانات المؤهلة للأطوار المتقدمة.

4. وضعية التعليم في المؤسسات الدينية:

1.4 وضعية التعليم قبل 1830 (غداة الاحتلال):

يسمى هذا التعليم بالتعليم الإسلامي (الأصلي) وهو تعليم عربي من حيث اللغة والثقافة، وتعليم إسلامي من حيث المحتوى والروح، وكان ينعت بالتعليم التقليدي أحيانا باعتباره استمرارا للتعليم السائد خلال العهد العثماني، ومن الممكن وصفه بالتعليم الأصلي باعتباره تعليما يمثل المنهج التربوي الذي مارسته أجيال من المتعلمين، وباعتباره حافظ على التراث القومي في وجه الغزو الحضاري الأجنبي...وقد كان تعليما موازيا للمدرسة الفرنسية والتأثير الفرنسي، وكان أهله يكافحون به بعد عجزهم عن مكافحة الاستعمار والاحتلال بالسلاح ...وكلّ الذين درسوا موضوع التعليم في الجزائر غداة الاحتلال اندهشوا من كثرة المدارس وحرية التعليم وكثرة المتعلمين ووفرة الوسائل من أجل التعلم ، كالمداخيل الوقفية، ومحلات الأوقاف والأجور العالية، وفي المدن كما في الأرياف كان التعليم جزءا أساسيا من حياة الناس، وكان المعلم والمتعلم موضع تقدير الجميع، وحبّ العلم كان جزءا من العبادة. كما اندهش أولئك من وفرة المدارس التي كانت تزيد ربما عن نسبة السكان، وكان التعليم حرا وخاصا ويكاد يكون مجانيا وإجباريا قبل أن تشرعه فرنسا لأبنائها بعد 1873...إذ يلتقي أولاد الأغنياء وأولاد الفقراء على صعيد واحد ويتلقّون نفس البرنامج على يد نفس المعلم، وبنفس اللغة والروح. وربما وظف الأغنياء معلمين (مؤدبين) خاصين لأبنائهم[16].

لقد كان التعليم والتربية العربية الإسلامية للجميع وفي هذا الصدد يقول الدكتور الصديق تاوتي: "الشيء الذي يتفق عليه عدد كبير من المؤرخين هو أنّ كلّ الجزائريين كانوا يعرفون القراءة والكتابة، يعطي "ميشال هابار" (Habart Michel) العدد مائة وهو عدد المدارس الموجودة في مدينة الجزائر، و86 بمدينة قسنطينة، و50 بمدينة تلمسان، لقد أورد وجود عشرة جامعات موزعة عبر التراب الجزائري عام 1830م، كان جنرال فرنسي هو الذي أعلن يوم: 1834/01/20، أمام غرفة النواب: "كلّ العرب تقريبا يعرفون القراءة والكتابة، وفي كلّ قرية توجد مدرستان""[17].

وتروي "إيفون توران Yvonne turin"شهادات عدد كبير من الضباط الذين يقرون بأنّ التعليم الجماهيري كان جدّ شائع، وأنّ لكل قبيلة ولكلّ حيّ معلمه قبل الاحتلال الفرنسي، كما يروي أحد أولئك الضباط هو "لاموريسيار Lamoricier" في تقريره بعض الإشارات عن الوضع قبل الغزو في مقاطعة تلمسان فقط، كان يوجد في المدينة 3 إكماليات وخمسون مدرسة لحوالي 12000 أو 14000 نسمة. وفي الريف

كانت توجد 30 زاوية مشهورة نوعا ما لحوالي 125000 نسمة، وكان يوجد في كلّ دوار مدرسة، كان هناك 2000 طالب يزاولون تعليما ثانويا و600 يتابعون دراسات عليا، وكان لكل مؤسسة مكتبتها[18].

وفي حديثه عن مكانة المدرسة عند الجزائريين يقول الدكتور الصديق تاوتي أيضا: "كانت عائدات المؤسسات الدينية المسماة الحبوس أو الوقف هي التي تسمح أساسا بدفع مرتبات المدرسين وبناء الهياكل وصيانتها ، وقد اكتشف الضباط الأوائل أنّ السكان كانوا يضعون تعليم أبنائهم في المقام الأول من انشغالاتهم. وإن الشهادات الصريحة التي يقدمها الوالي "كارات Carette" لها مغزاها حينما يروي الأحداث التالية: "طلب أهالي بجاية مقابلتي فكان لهم ما طلبوا، لم يحدثوني لا عن حجز ممتلكاتهم ولا عن مأساتهم العميقة بل قالوا لي: "رمموا لنا مسجدنا، واعطونا مدرسة لائقة، وادفعوا أيّ راتب للمعلم الذي لا نستطيع إعطاءه أجره، هذا كل ما نطلبه، لقد تأثرت أيما تأثر أمام هذا التفاني ونكران الذات بجانب العوز والفاقة الشديدة، ووعدتهم أن أتوسط بكلّ ثقلي في سبيل مطالب لها حقها من الشرعية" [19].

لعل هذه الشهادات تكفي لتثبت أنّ التعليم كان جد شائع، وأن جزائر ما قبل 1830لم تسجل أيّ تأخر في مجال تربية أبنائها، "ففي الوثائق الفرنسية الرسمية أنّ التعليم العربي الإسلامي كان على العموم مزدهرا سنة 1830م، وهو يتألف من مستويات التعليم الثلاث المعروفة اليوم: الابتدائي والثانوي والعالي. وكان التعليم الثانوي والعالي مجانا، أمّا الابتدائي فقد كان بأجر اختياري ضعيف، وفي أغلب الأحيان يدفع الأجر عينا، وجميع أنواع التعليم لا تقدم إليها الدولة (الجزائرية) أية مساعدة، فكان تعليما حرا بمعنى الكلمة، وكانت المدارس متصلة بالمساجد في أغلب الأحيان، ويشرف عليها وكلاء الشؤون الدينية، وهي تتغذى من أملاك الأوقاف الخيرية. ولكن منذ الاحتلال دخلت أملاك الأوقاف في أملاك الدولة الفرنسية، فأهملت المدارس الإسلامية، وتوقف التعليم الابتدائي والثانوي، ولم تبق إلا بعض الزوايا البعيدة والمعزولة حيث الدروس العليا...ويضيف تقرير آخر أنّ المعلمين كانوا أيضا أحرارا فهم لا يخضعون إلى أية ترقية، وشهرتهم هي التي تدل عليهم، وهذه الشهرة تكون في العلم والأخلاق الكريمة والسلوك الجيد، كما أنّهم كانوا يحصلون على الشهادة (الإجازة) من أستاذ معروف، وكانت المدارس كثيرة، ورواتب المعلمين مضمونة من مداخيل المساجد (الوقف)، وكان مشاهير الأساتذة يأتيهم المتعلمون من أماكن بعيدة، وقد أقيمت الزوايا المجاورة للمساجد لإيواء أمثال هؤلاء الغرباء"[20].

إذن نلاحظ الحرية التامة التي كان يتمتع بها التعليم في الجزائر بصفة عامة (التعليم الإسلامي) وأهله (المعلمون، المتعلمون) وأماكنه (المساجد، الزوايا والمدارس القرآنية) "كان برنامج التعليم يكمل بعضه بعضا، ففي الابتدائي يحفظ الطفل كلّ أو أجزاء من القرآن الكريم، ويتقن الكتابة والقراءة، ويتعلم مبادئ الدين، ويحفظ المتون والنصوص الضرورية. وفي الثانوي يواصل المطالعة والفقه والتوحيد ودراسة النحو والصرف وأولويات التفسير ومصطلح الحديث والسيرة النبوية. وأمّا الدراسات العليا فتشمل الفقه أيضا وأصول الدين والتوحيد

والتاريخ الإسلامي وبعض الحساب والفلك والجغرافية والطب والتاريخ الطبيعي...والهندسة وعلم الرسم والزخرفة الخطاطة وكتابة الوثائق، وقد لاحظت التقارير أنّ التعليم الأول كان يحصل عليه أبناء الطبقة الغنية وكذلك التعليم العالي الذي لا يواصله عادة إلا الطبقة التي كرست حياتها للعلم حتى أصبح فيها وراثة. والمقصود هنا هو علم الدين"[21].

من خلال ما سبق نلاحظ الحرية التامة التي كان يتمتع بها التعليم في الجزائر بصفة عامة (وهو ما يعرف بالتعليم الإسلامي).

2.4 وضعية التعليم الاسلامي أثناء الاستعمار الفرنسي:

لم يكن غزو البلاد بالأمر الهين، سيما وأنّ جيوش الاحتلال قد أمضت ما يقارب نصف قرن حتى تخضع الأهالي للسلطة الفرنسية، حيث كان البعض يرى أنّ وضعية الاحتلال جعلت من إنشاء مدرسة أمرا سابقا لأوانه، بينما يرى آخرون بأنّه يجب أولا حلّ مشكل اللغات قبل التفكير في التعليم...وكان يرى آخرون أنّ العمل الجبار الذي يمكن القيام به هو إحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية وسوف لن تتأخر اللغة الفرنسية عن الانتشار بين الأهالي، سيما إذا جاءت الأجيال الجديدة بكثرة للتعلم في المدارس الجديدة.

1.2.4 الزوايا: "إذا كان حال العلم غداة الاحتلال هو الازدهار والانتشار والاحترام، فأين هو بعد ربع قرن من ذلك؟ لقد أهمل الفرنسيون التعليم في المدن والأرياف، على السواء، لأسباب مختلفة منها اغتصاب موارده، وكثرة الحروب، ومشاركة الطلبة في واجب الجهاد. وبعد ضعف التعليم بل نكاد نقول انهياره في المدن على إثر الاحتلال، بقي التعليم في الزوايا والمعمرات، فخرج إليها التلاميذ واغتربوا فيها طلبا للعلم والمقاومة الثقافية، وبعد نجاح الاستعمار في التوغل في الريف أيضا ومراقبة المعلمين والتلاميذ ضعف التعليم هناك أيضا وحوصر إداريا بالقوانين ولغويا بالفرنسية ، سيما منذ الستينات، وفي هذه الأثناء نشأت زوايا جديدة مثل زوايا الهامل وأولاد جلال وقصر البخاري، وفتحت زاوية نفطة أبوابها للجزائريين، وظلت زوايا زواوة مستمرة في التعليم إلى ثورة 1871.وكلّ هذه الزوايا ترجع إلى الطريقة الرحمانية عدا زاوية قصر البخاري التي كانت شاذلية. ومع ضغط الاستعمار في عهد الجمهورية الثالثة كادت حركة التعليم العربي الإسلامي تختفي"[22].

"وتعترف بعض المصادر الفرنسية بأنّ اختفاء التعليم – العربي الإسلامي– أو فشله يرجع أيضا إلى هدم العديد من المدارس والزوايا أثناء الثورات المتأخرة مثل 1857، 1864، 1871 وقد حدثت الأزمات الاقتصادية خلال الخمسينات والجوائح الماحقة بين (1867،1869)، ثمّ إنّ الزوايا كانت تعيش من الأوقاف (الأحباس) إلى سنة 1863، ولكن في هذه السنة صدر المرسوم الشهير حول تمليك الأرض والذي قضى على أوقافها أيضا إذ كان كثير من الزوايا يعيش على الأرض الموقوفة، فلم يبق للزوايا بعد ذلك من الموارد سوى الزيارات التي يأتي بها أتباع الزوايا في مواسم معينة، وقد تدخلت السلطات الفرنسية في هذه الزيارات أيضا فمنعتها عمن تشاء وأبقتها فقط لبعض الشيوخ الذين خدموا فرنسا بإخلاص...وليس السبب الاقتصادي هو

وحده الذي كان وراء فشل الزوايا في أداء دورها – والتعليم من أبرزه – ذلك أنّ مجالات العمل أمام المتخرجين منها أصبحت معدومة تقريبا. فالفرنسيون كانوا يعتبرونها ملجأ للتعصب الديني والتراث العربي الإسلامي. ولذلك زعزعوها من جذورها، ولم يكونوا يثقون في المتخرجين من الزوايا ولا من الذين يتخرجون من القرويين أو الزيتونة أو من الأزهر. وقد أسسوا المدارس الشرعية الرسمية الثلاث لتخرج من يحتاجونه في الوظائف الدينية والقضائية دون الحاجة إلى خريجي الزوايا أو معاهد المغرب أو تونس أو مصر، وبنى الفرنسيون بعض المدارس الابتدائية –العربية الفرنسية – لتنافس تعليم الزوايا والمعمرات والتأثير على جيل من المتعلمين لا رابطة بينه وبين ما يسمى التعليم الديني أو التقليدي .ولم يعد في استطاعة الزوايا التوسع في أوساط الأعراش وفي المدن كما في الماضي لأنّ مرسوم الأرض المشار إليه أخذ صلاحيات كثيرة من القيادات العربية السابقة وبدأ في تدجينها بتقليص مساحات نفوذها ونزع أهمّ اختصاصاتها وإدخال منافسين جدد ليسوا من أهل السيف...ولكن يجب ألا يفهم من هذا اختفاء الزوايا ودورها التعليمي تماما. فرغم التدهور الذي أصابها خلال الستينات...فإنّها قد استمرت في أداء مهمتها في بعض المناطق كالجنوب وزواوة والأوراس، وكان بعضها يكتفي بالحد الأدنى "المسموح به" وهو تحفيظ القرآن الكريم ومبادئ الدين..."[23].

وفي هذا الصدد يقول محمد نسيب: "إنّ معظم الزوايا العلمية تعرضت للهدم والتخريب والإغلاق من جيش الاستعمار الفرنسي أثناء ثورة التحرير بعد إحراق ما فيها من كنوز المخطوطات التي حفظت في هذه الزوايا والكتب التي سلمت من السلب والإتلاف والإحراق في الأيام الأولى للاحتلال الفرنسي المشؤوم للجزائر "ويواصل قائلا: "ولقد تعرضت زوايا القرآن والتعليم لحقد الاستعمار الصليبي لأنّها كانت حصون الإسلام، وكانت قذى في عيون الصليبين وشجى في حلوقهم وصخرة في طريقهم منعتهم من الوصول إلى غايتهم الدنيئة، بل كانت مراكز المقاومة ومقر المجاهدين، لذلك أنتقم منها جيش الاحتلال الفرنسي الذي أعماه الحقد الصليبي وكان تقوده الطغمة الاقطاعية المجرمة وصبّ عليها جامّ غضبه وهدم البعض، وأغلق الباقي وشرد طلبتها فمنهم من قتل ومنهم من سجن ومنهم من فرّ والتحق بصفوف المجاهدين، أمّا الطلبة الصغار الذين لا يقدرون على حمل السلاح فقد جمعهم جيش التحرير وبعثهم إلى تونس لمواصلة دراستهم ومن هناك وزعوا على البلدان العربية كليبيا ومصر وسوريا ولبنان والكويت والعراق ومعظم هؤلاء الطلبة هم اليوم إطارات البلاد تجدهم في كل ميدان من ميادين الحياة"[24].

ويضيف محمد نسيب في هذا المجال قائلا: "إذن فالزوايا حافظت على الجانب الروحي وتمسكت بالقيم الدينية والاجتماعية وأصالة الأمة وما تحمل هذه الأصالة من عقيدة وشريعة وثقافة وشخصية...لا تقبل الذوبان وإنّ جردها الاستعمار الفرنسي من الجانب المادي لكنه لم يقدر أن يجردها من الجانب الروحي وكلما ضعف الجانب المادي تقوى الجانب الروحي الذي استمد منه الشعب الجزائري قوته النضالية، التي تحدت كلّ الأساليب الاستعمارية، فالجانب الروحي هو ينبوع الطاقة الذي لا ينضب...والجذوة التي لا تنطفئ والشعاع

الذي لا يخبو نوره. بذلك حافظ الشعب الجزائري على روح الجهاد والعمل المستمر والايمان الثابت الذي لا تزحزحه عواصف الظلم والطغيان، بل صمد في وجه التنصير والتغريب رغم الظروف الصعبة المحيطة به من كل جانب والعراقيل التي تعترض طريقه، والضربات القاسية التي يتلقاها باستمرار من الإدارة الاستعمارية وتهديداتها التي تنذره بالفناء والابتلاع في كل حين. إنّ مقاومة التعليم الديني للاستعمار الغربي الصليبي كانت أقوى وأعنف من مقاومة السلاح، إذ إنّها مقاومة الرفض لكلّ ما هو أجنبي استعماري يخالف الإسلام وتقاليد البلاد. وإنّ طالب الزاوية كان يتمسك بدينه ويتعلق بشخصيته، ويعتز بثقافته العربية الإسلامية في الوقت الذي كان الناس يتهافتون فيه على اللغة الفرنسية لغة الخبز ويتسابقون إلى لغة الوظيفة أي لغة المستعمر، لكي يحظوا بفتات الخبز الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، بل الخبز المغموس في دماء الضحايا المذبوحة، وكان طالب الزاوية حريصا أشد الحرص على لغته التي تتمثل فيها شخصيته، إنّها مرآة تتجلى فيها ذاتيته ويتجسد فيها وجوده، بذلك يحس أنّه حيّ لم يمت، ورغم الفقر والقهر والحرمان وشظف العيش فإنّه لم ينخذل ولم يتضعضع بل استمر يعمل من أجل تدعيم الحواجز بينه وبين الغزاة ...لقد جاهدت الزوايا زوايا القرآن، وصمدت في وجه الاستعمار الصليبي وقاومته عند دخوله إلى يوم خروجه، قاومته بالسلاح وعندما انهزمت في الميدان العسكري استعملت سلاح الرفض والصمود. لم تزحزحها عواصف الشر والطغيان، ولم ترضخ لأساليب القمع والارهاب، ولم تستكن للمعتدين المستبدين، بل جاهدت وقاومت الاستعمار حتى أحرقت وهدمت عن آخرها، والواقع يشهد بذلك..."[25].

وبالرجوع إلى التعليم الإسلامي العربي – خصوصا في مؤسسة الزوايا خلال هذه المرحلة (القرن الأول من الاحتلال)– نعود إلى خلاصة ذلك حيث يقول أبو القاسم سعد الله: "ولكن كلّ ذلك لم يجعل الزوايا ترفع العلم الأبيض، فقد بقي "في الزوايا خبايا" كما يقولون، ومن هذه الخبايا سيتخرج جيل مطعم بالتأثير العربي الإسلامي وبالجو العام الفرنسي ، وسيكون هو العمود الفقري لحركة الإصلاح القادمة، وقد وجد هذا الجيل احتياطيا قويا في خريجي المعاهد الإسلامية الذين كانوا مهمشين وغرباء في بلادهم، إلى أن فتح الفرنسيون مجال التعليم من جديد في عهد "كامبون"، بشرط طلب الرخصة حسب قانون أكتوبر 1892م ، فأقدم الجزائريون على إحياء التعليم في مختلف مجالاته، في الزاوية والمسجد والمدرسة" .[26]

2.2.4 المدارس القرآنية: أمّا فيما يخص التعليم في المداس القرآنية في هذه المرحلة (الاحتلال) فهو مثل سابقيه (المساجد والزوايا)، لم يسلم من المضايقات والمنع والهدم والتخريب والإغلاق...، وها هو الدكتور أبو القاسم سعد الله يصف لنا هذه الوضعية قائلا: "لقد درس الفرنسيون وضع هذا التعليم منذ أوائل الاحتلال، ورأوا أنّه تعليم قاعدي تنبني عليه الدراسات الإسلامية في البلاد وفي العالم الإسلامي كله. فإذا حاربوه ومنعوه ثارت عليهم ثائرة السكان، فاتفقت كلمتهم على الإبقاء عليه مع تجريده من مؤسساته في المدن... والتحكم في المؤدبين من الناحية المالية والفكرية، وقطع التواصل بينه وبين التعليم المتوسط والثانوي، ومنع المؤدبين من

تجاوز الحفظ إلى التفسير والتفهيم أو تعليم أي مادة أخرى معه، ثم إنشاء المدارس الضرة إلى جانبه، ونعني بها المدارس الفرنسية ذات الطراز العصري والبرنامج العملي والمنهج المتطور، وبذلك أصبح حفظ القرآن نوعا من العبادة فقط كالصلاة التي لم يمنعها الفرنسيون أيضا، ولكنه لا يقدم شيئا للمتعلم في الحياة إلا العقيدة في البركة، وقد حاولت بعض الزوايا منذ الستينات أن تربط بين حفظ القرآن وبرنامج التعليم فكان التلاميذ فيها ينتقلون من الابتدائي القرآني إلى المتوسط فالثانوي وبذلك استمرت تجربة التعليم القديمة في هذه الزوايا...ومن جهتهم لجأ الفرنسيون لجلب المسلمين إلى المدارس الفرنسية القليلة التي أنشأوها منذ 1850م (حوالي 36 مدرسة في الجملة) إلى إدخال مادة حفظ القرآن فيها والعهد بها إلى "طالب" مسلم، وكان التلاميذ في هذه المدارس يحفظون القرآن بطريقة جديدة...لقد كان نوعا من التحايل المؤقت، ذلك أنّ التلميذ بعد مادة القرآن كان يتفرغ كلية للغة الفرنسية وموادها وتاريخ فرنسا وجغرافيتها وعلومها الخ...ومن الخطأ حصر دور المدارس القرآنية في تحفيظ القرآن الكريم ، لأنّه في الواقع يمتد إلى التربية الدينية والأخلاقية، وهذا هو الجانب الذي أراد الفرنسيون القضاء عليه، مع احتفاظهم باستظهار التلميذ للقرآن فقط...ويشير أبو القاسم سعد الله إلى الدراسة التي قام بها "ألفريد بيل" في ذكره ملامح التعليم القرآني في وقته (1908م) يقول وهو يتحدث عن التجربة منذ إصلاح 1892م، أنّ تلاميذ المدرسة القرآنية قد تركوها إلى المدرسة الابتدائية الفرنسية، وبعضهم كان يجمع بين المدرستين، وسيحل في نظره التعليم اللائكي (غير الديني) للفرنسية والعربية في المدرسة الفرنسية الخاصة بالأهالي، محلّ المدارس القرآنية بالتدرج، ثم إنّ المدرسة التحضيرية التي تنوي فرنسا إقامتها (وقد فعلت) في الأرياف، سيجعل الأطفال الجزائريين يتركون التعليم القرآني، لأنّ معظم الآباء إنما يرسلون أولادهم إليه ليتخلصوا منهم فقط...وبهذه الطريقة يخرج الطفل من المدرسة القرآنية ويذهب إلى المدرسة التحضيرية الفرنسية...لكن ظاهرة التخلف أوصلت التعليم القرآني، وغيره إلى الحد الذي وصفه "بيل" إلاّ أنّ المدارس القرآنية قد استمرت في المدن رغم الصعوبات".[27]

3.2.4 المساجد: أمّا فيما يخص التعليم "فإنّ هدم عشرات المساجد أو تحويلها إلى كنائس أو مستودعات أو منحها للجيش والجمعيات الدينية الفرنسية، كلّ ذلك حرم العلم من مقراته ومن موارده أيضا، لأنّ كل بناياته كان لها ريعها ووكيلها ومدرسها... فالدروس التي كانت تلقى في أغلبها قد توقفت نتيجة هدم العشرات منها أو تعطيلها...أمام هذه المعاملات للمساجد لا أحد كان ينتظر استمرار الدروس فيها، فلا العلماء ولا الفقهاء كانوا مستعدين لمواصلة مهمتهم في جو من الإرهاب والبطش وعدم الاستقرار، ولا الفرنسيون كانوا سيسمحون بذلك وهم يحاولون وضع أيديهم على كلّ شيء في البلاد، ولا الطلبة الذين لم يعد يطيب لهم مقام في المدن تحت قبضة العدو. وهكذا كان الاحتلال وما تلاه من إجراءات وارهاب ومصادرة سببا في توقف دروس المساجد في المدن...وابتداء من 1851م وقع تنظيم خاص للمساجد والمدرسين فيها. والتنظيم جاء بعد دراسة شاملة للدراسات الإسلامية وموظفيها عموما. وقد رتبت المساجد إلى خمس درجات، ولم يختص بالتدريس إلاّ

مساجد الدرجة الأولى. وهذه المساجد لا تكون إلا في المدن الرئيسية. فكان ستة فقط في كل القطر من الدرجة الأولى ثلاثة في العاصمة واثنان في قسنطينة وواحد في تلمسان، وقد سمي المدرس "مفسرا للقرآن" فقط. فلم يعد تدريس اللغة والنحو والأدب والتاريخ وما إليها جائز للمدرس، وإنما كان الفرنسيون هم الذين يختارون له موضوعات في الفقه وأخرى في التوحيد لا يخرج عنها...وفي سنة 1897 وصف المدرسون بأنهم هم الذين يقومون بالتعليم العالي في المواد الآتية: التوحيد والفقه والنحو والأدب وعلم الفلكّ، وعرفوا بأنهم العلماء الأكثر تقدما في التعليم، وبذلك تطور مفهوم المدرس عما كان عليه منذ سنة 1850م في نظر الفرنسيين، فالعلماء أصبحوا يكونون التلاميذ لوظائف الديانة، ومن بينهم تختار الدولة عادة المفتين والقضاة ...وإنّ مدرسي المساجد على النحو المذكور كانوا لا تأثير ولا أثر لهم. فعلمهم كان ضئيلا وكان بعضهم لا يكاد يحسن الكتابة الصحيحة كما لاحظ المعاصرون، وكانوا موظفين طائعين يعملون على إرضاء الفرنسيين بكلّ الطرق، وهم في أغلبهم البقية التي لم تهاجر أو لم تغضب السلطات الفرنسية. وبعضهم كان مجهولا تماما فلم يكن له اسم ولا رسم بين العلماء السابقين ولا في العائلات العلمية التي كانت عادة تتوارث العلم أبا عن جد...وهذه نتيجة هيئة التدريس الجديدة التي نصبتها السلطات الفرنسية في المساجد، إنّها هيئة جاءت لتبارك العمل الفرنسي وتختم على أوراق الإدارة، وتصدر الفتاوى المناسبة والدروس الفاترة على من بقي من التلاميذ. ومن عادة الجزائريين عدم الثقة فيمن تعينه السلطات الفرنسية ولو كان من أنبغ العلماء، وهو ما لا يكون".[28]

5. واقع المؤسسات الدينية والتعليم بها من بعد الاستقلال إلى اليوم:

لقد وضع حد لهذا النوع من التعليم في الجزائر من طرف المستعمر الفرنسي أيام احتلاله لبلادنا –كما رأينا– وذلك بقضائه على المؤسسات الدينية وحتى أنّه أغلق المدارس بصفة عامة والمعاهد والجامعات، ولم يبق إلاّ التعليم القرآني الذي ينصب على الحفظ وحده بعيدا عن الفهم والتحليل والاستنتاج، "وهو تعليم ببغائي إذا قسناه بالتعليم الفكري المنهجي الأمر الذي أدى إلى تجميد الفكر وفهم الإسلام فهما سطحيا، وفي كثير من الأحيان فهما خرافيا مشوها باستثناء فئة قليلة تلقت نصيبا من المعرفة وكانت بمثابة المصباح المنير للآخرين ولكنها تتجاوز في معرفتها حدود النقل والتقليد الممتد منذ بداية عصر الانحطاط، ولذلك ظل فهم الإسلام سطحيا إلى يومنا هذا...وكان من المفروض بعد استرجاع السيادة الوطنية أن تولي الدولة الجزائرية اهتمامها بهذا الجانب حيث تقيم مدارس ومعاهد وجامعات وتوظف فيها أحسن الأساتذة الأكْفاء يتم اختيارهم من قبل لجنة أو مجلس يضم أحسن العناصر ذات المقدرة العلمية الفائقة في الإسلام، وهذا الاختيار للأساتذة يكون على مستوى الوطن العربي والإسلامي...ولقد ظهرت مثل هذه البادرة في مستواهم العلمي وأخذت الدراسة تسير ولكنها اجهضت في المهد وحولت المعاهد إلى ثانويات عادية ذلك خشية بعض الملحدين والمغرضين من الإسلام، أو خضوعا لتعليمات خارجية، المهم ثمّ وضع حدّ لذلك المخطط للتعليم الإسلامي، والشيء الذي أدى إلى التخوف منه وقع فيه، والواقع الحالي أكثر خطورة من الواقع الذي كان منتظرا خصوصا بعد مرحلة

التسعينات وما أفرزته العشرية السوداء وبعد العشرين السنة الأخيرة (من سنة 1999 إلى 2019م) لأنّ التشبث بالإسلام كان عن جهل إن لم نقل التعصب الأعمى الذي انصب على الهوامش والشكليات مثل اللحية والعبادة والعمامة والمرأة مظهرها وصوتها وشغلها وخروجا ودخولها وغير ذلك، والادعاء بالعلم الإسلامي والجدل والإفتاء بدون علم والتحليل والتحريم حسب الأهواء والميول وتكفير الآخرين بكل بساطة وبدون حجة ولا مبرر صحيح"[29].

وهذا واضح للعيان ومشاهد في حياتنا اليومية لمن أراد أن يقف على ما يجري في مساجدنا وعلى ما يدور بين الناس من أحاديث وجدال في هذا الموضوع.

"هناك فئة كبيرة من الناس لا يفقهون من الإسلام شيئا وتوظيفهم في هذه الأماكن القصد منه ملء الفراغ نزولا عند رغبة المواطنين وإلحاحهم وليس عن دراسة مستفيضة وتخطيط دقيق من قبل مفكرين كبار في هذا الميدان...وإذا كان كذلك كيف يتسنى للناقص الذي هو في حاجة إلى تعلم أن يدرس غيره ويغوص في محيط عميق وواسع وهو لا يحسن السباحة ولا يملك وسائل الغوص؟ إنّه يفهم الأمور خطأ ويعلم غيره الخطأ وهذه هي الطامة الكبرى التي يقع فيها الإسلام في مجتمعنا اليوم، الخوض في الإسلام بدون فهم أو اتخاذه كوسيلة لبلوغ أهداف خاصة، أو اعتباره كتجارة تدر الربح على أصحابها، هذا هو مسار المدعين الوصاية على الإسلام" [30].

فالمسجد ليس في أحسن حال مما كان عليه بالأمس (الاحتلال) لأنّ شدة وقوة الغزو الثقافي والفكري اليوم أكثر من أيّ وقت مضى والحرب المعلنة على المؤسسات الدينية – والمسجد بالذات – جد شرسة وتزداد حدتها يوما بعد يوم، والمخططات الموجهة إليه كادت أن تفرغه من محتواه وتحيد به عن رسالته الحضارية الكبيرة، حيث أصبحت مساجدنا هياكل وبنايات لتأدية صلاة خالية من مظاهر الخشوع بمثابة حركات رياضية فقط أو عادة من عادات المجتمع تؤدى كموضة أو تقليد أو من أجل المظهر أو المباهاة والرياء والسمعة و... وحتى الدروس – بما فيها خطب الجمعة – فهي فارغة جافة غير مواكبة للعصر ولا تحرك المشاعر ولا الأحاسيس ولا تثير الحماس في نفوس المصلين، وهكذا أصبحت مساجدنا تشبه دور العبادة في ديانات أخرى (الكنائس والصوامع والبيع والدير...)

وما يقال عن حال المسجد يقال عن حال مؤسسة أخرى جد مهمة ألاّ وهي الزاوية أو الزوايا إذ إنّه من خلال ملاحظاتنا ومعايشتنا لها ولبعض التي زرناها على مستوى الوطن فهي بدورها كذلك وبالإضافة إلى ما عانت منه أثناء الاستعمار الفرنسي إنها اليوم أشد عناء للأسباب التي ذكرنا بعضا منها عن المسجد كذلك التهميش الذي مسها في الثلاثين سنة الأخيرة (من 1990 إلى اليوم 2020م) أضر بالكثير منها ، حيث لحقها التخريب والتهجير ، وشلت حركتها ، وأفرغت من محتواها السوسيوثقافي، وجردت من معظم أدوارها (إلاّ الدور الترفيهي بإحياء المناسبات أو القيام ببعض التظاهرات الظرفية والمؤقتة) وتم تسييسها (تعرضها لمضايقات

سياسية قلصت من جميع أدوارها سيما الديني (الأخلاقي والروحي)، والتربوي التعليمي، والاقتصادي والاجتماعي (مساعدات رمزية وجد شحيحة من الدولة)، فلم تعد لها مداخيل كالسابق ولم تعد أيضا تتحمل تبعات الإيواء (الضيوف، العجزة، الفقراء والمساكين وأبناء السبيل بصفة عامة (وإنّ المتتبع لشأن الزوايا يمكنه تقسيمها إلى قسمين أو إلى نوعين:

1.5 النوع الأول: الزوايا التي أسست لعبادة الله تعالى وتحفيظ القرآن الكريم، وتعليم الدين ونشر القيم والفضائل والإسلامية، وهذه في الحقيقة مدارس للتربية والتعليم وتهيئة النشء للمعاهد الإسلامية العالية بمصر وتونس والمغرب. ومؤسسو هذه الزوايا والمعلمون فيها أصحاب رسالة وذووا وزن عند الله تعالى وعند الناس لأنهم صانعوا أجيال وبناة مجد، احتفظ التاريخ في صفحاته الوضيئة المشرقة بأسمائهم، لنذكرهم بالإعجاب والتقدير ونترسم خطاهم ونحذو حذوهم وكثير من هؤلاء لم يقتصروا على تعليم الطلبة وتربية العامة بل هجروا المحابر وحلقات الدروس إلى جبهات القتال دفاعا عن الإسلام والمسلمين وتحريرا للأوطان من براثن الاستعمار.

2.5 النوع الثاني من الزوايا: هي الزوايا التي حادت عن رسالتها أو لم تفهمها فاشتغلت بما يشغلها عن رسالتها.

6. الخاتمة

إنّ موضوع المؤسسات الدينية يشكل في نظر النزهاء من الكتاب والباحثين حلقة هامة في سلسلة تاريخنا الثقافي العظيم الحافل بجلائل الأعمال، لذلك نتمنى أن يعنى الدارسون به، ويولوه عناية كبيرة ويخصوه بالبحث المستفيض، والنظر الدقيق – بعيدا عن التأثير بما قيل ويقال حوله خدمة لأغراض حزبية معينة، ورغبة في تشويه صورته الحقيقية المشرقة لمآرب ذاتية معينة – ليسجلوا بذلك كلمة حق وصدق وإنصاف للحقيقة والتاريخ، ويعيدوا الاعتبار لأولئك الجنود المجهولين الذين ظلوا مرابطين في ثغورهم — مشايخ تصوف وقرآن وأئمة وعلماء عاملون مصلحون – من أجل الحفاظ على عروبة الجزائر وإسلامها والذين كانت حياتهم – وماتزال للبعض — صفحة مشرقة من صفحات الجهاد والبطولة ومثلا صادقا من مثل التقى والورع والاستقامة.

إنّه من الجناية على الحقيقة وعلى التاريخ ومن الكذب على الأجيال، والظلم، أن ينكر البعض ما قامت به الطرق الصوفية والزوايا – المؤسسات الدينية بصفة عامة — المنتشرة في قرى الوطن ومدنه وفي جباله وسهوله وصحرائه الواسعة من دور عظيم في نشر الإسلام والحفاظ على كتابه الخالد، وتعليم لغة الضاد والمحافظة عليها.

ونوصي في ختام هذا البحث بما يلي:

- وضع منهج محكم ورسم نهج مستقيم وخطة محكمة من أجل تأطير هذه المؤسسات، لإبعاد المجتمع من الانحراف عن صميم تعاليم الدين الحنيف وفهمه فهما صحيحا وسطا.
- الدعوة إلى عقد لقاء على مستوى كلّ ولاية بمختلف أطيافها، ومن ذوي الكفاءات العلمية البارزة وفي مختلف فنون العلوم لتكون هي المحرك الرئيسي والمنشط للعملية.
- الدعوة إلى إعادة تفعيل الدور المحوري المسجد، فبدل أن يكون جامعا، فإنه يفترض فيه أن يكون جامعا ومدرسة وجامعة وقضاء، فيصبح المسجد مركز الثقل ومحور الحركة في الحي والقرية والمدينة، لأنّ المسجد متمم لعملية التعليم والتربية التي بدأت بالأسرة.
- ضرورة إعادة الاعتبار للزوايا العلمية والصوفية (السلوك)، باعتبارها مؤسسة من مؤسسات المجتمع، وحركة من حركاته الجمعوية الفاعلة بالمفهوم المعاصر حتى تساهم في حركية المجتمع وتعمل على توازنه في ضوء المقومات الشخصية.
- ضرورة إعادة نظر هذه المؤسسات (الزوايا) في مناهجها وطرق تعليمها وتوجيهها، وتوحيد اتجاهاتها بدءا من إنشاء أكاديمية علمية للزوايا تجمع التراث الثقافي ويشرف عليها باحثون في العلوم الاجتماعية والشرعية.
- ضرورة التفكير في آليات وأساليب وطرق تحفيزية لجلب أبنائنا وتحبيبهم في الالتحاق بالمدارس والمعاهد القرآنية، واستخدام أساليب علمية ومتطورة وتكنولوجية للحفظ والاستظهار والمراجعة، وإعطائها أهمية بالغة من المجتمع المدني المحلي (أولياء التلاميذ) من خلال تشجيع الأبناء ومعلمي الأطفال بكلّ الطرق بما فيها التشجيعات المادية، مع سن قوانين نظامية تؤطرها.

7. الهوامش:

1-علي عبد الحليم محمود، التربية الاجتماعية الإسلامية، ط1، دار النشر والتوزيع الإسلامية، مصر 1422هـ، 2001م، ص134.

2-مراد زعيمي، مؤسسة التنشئة الاجتماعية، ط1، دار قرطبة للنشر والتوزيع، المحمدية، الجزائر، 1427هـ، 2007م، ص109.

3-المعلم لطرش البستاني، دائرة المعارف، الجزء التاسع (9)، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص161، 162.

4- ABDELLAH LAROUI ,l'histoire du Maghreb , tome1, Paris , 1970 , p229,230.

5-تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1395هـ، 1975م، ص17.

6-الطالب عبد الرحمان بن أحمد التجاني، الكتاتيب القرآنية بندرومة من 1900 إلى 1977، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص 134.

7-علي عبد الحليم محمود، المرجع السابق، ص134.

8-محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: جماعة من العلماء، المطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر المحمية، 1311هـ، باب باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي، ج01، رقم الحديث143، ص 707.

9- أحمد بن شعيب النسائي، السنن الصغرى للنسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط02، 1406، باب هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة، ج02، رقم الحديث1141، ص 229.

10-خالد أحمد الشنتوت، دور البيت في تربية الطفل المسلم، ط4، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر 1990م، ص36.

11-سورة الحجرات، الآية 9.

12-سورة الشورى، الآية 40.

13-عبد الرحمان النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر دمشق، سورية، 1420 هـ،1999م،ص133،132.

14-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ط1، (1830,1954)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998م، ص284

15-عبد الرحمان النحلاوي، المرجع السابق، ص134.

16- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ط1، (1830، 1954)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998م، ص19،17.

17-الصديق تاوتي، تكوين الإطارات من أجل التنمية، ط1، شركة دار الأمة، الجزائر، 2001م، ص14.

18-TURIN (Y) affrontement culturels dans l'Algérie coloniale. écoles. médecines, religion , 1830-1880, Maspero, Paris.1971.p131 (p436).

19-الصديق تاوتي، المرجع السابق،ص15.

20-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، المرجع السابق، ص22.

21-أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص23 ،24.

22- المرجع نفسه ص30, 31.

23-المرجع نفسه ، ص33.

24-محمد نسيب، زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر، دمشق، سورية، دار الفكر الجزائر، 1409هـ، 1989م، ص77.

25- محمد نسيب، المرجع السابق، ص78، 79، 80.

26-أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج3، ص34.

27-المرجع نفسه، ص36، 37، 47، 54. بتصرف

28- المرجع نفسه، ص 54 ، 56 بتصرف.

29-المرجع نفسه، ص 58، 59، 62، 63، 64 بتصرف.

30-إدريس خضير، دراسة وضعية التعليم والثقافة في الجزائر، منشورات تالة، الجزائر،2001م، ص71، 72، 73 بتصرف.

8. قائمة المراجع:

1. أحمد بن شعيب النسائي، السنن الصغرى للنسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط02، 1406.
2. البستاني المعلم لطرش، دائرة المعارف، الجزء التاسع (9)، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
3. تاوتي الصديق، تكوين الإطارات من أجل التنمية، ط1، شركة دار الأمة، الجزائر، 2001م.
4. التجاني الطالب عبد الرحمان بن أحمد، الكتاتيب القرآنية بندرومة من 1900 إلى 1977، ديوان المطبوعات الجامعية 1983.
5. تركي رابح ،التعليم القومي والشخصية الوطنية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر، 1395هـ، 1975م.
6. خضير إدريس ، دراسة وضعية التعليم والثقافة في الجزائر، منشورات تالة، الجزائر،2001م.
7. زعيمي مراد، مؤسسة التنشئة الاجتماعية، ط1، دار قرطبة للنشر والتوزيع، المحمدية ،الجزائر، 1427هـ، 2007م.
8. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ط1، (1830 ،1954)، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، لبنان، 1998م.
9. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ط1، (1830,1954)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998م.
10. الشنتوت خالد أحمد، دور البيت في تربية الطفل المسلم،ط4، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر 1990م.
11. محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: جماعة من العلماء، المطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر المحمية، ١٣١١ هـ.
12. محمود علي عبد الحليم، التربية الاجتماعية الإسلامية، ط1، دار النشر والتوزيع الإسلامية ،مصر 1422هـ،2001م.
13. النحلاوي عبد الرحمان، أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر دمشق، سورية، 1420 هـ،1999م.
14. نسيب محمد، زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر، دمشق، سورية، دار الفكر الجزائر، 1409هـ، 1989م.
15. ABDELLAH LAROUI ,l'histoire du Maghreb , tome1, Paris , 1970.
16. TURIN (Y) affrontement culturels dans l'Algérie coloniale. écoles. médecines , religion , 1830-1880, Maspero, Paris.1971.